نـافـذة

لا شعور

يتبارى الناس في إخفاء حقائقهم، للوصول في النهاية إليها، يعيش حياته المزيفة للوصول إلى حقيقة عندما يصل إليها يجدها مزيفة، وأن كل الزيف الذي عاشه هو الحقيقة التي أضاعها في رحلة بحثه عن الزيف الذي كان يظنه أجمل!

فهذا يعيش عمره لمحاربة طواحين فكره الهوائية ضد قيود الدين والسياسة والجنس وربما حاضر وكتب وتحدث للتخلص من فكرة يراها مسيطرة عليه، تسيّر حياته، وعندما يصل إلى المحطة الموعودة يجد أنه حارب كل عمره ضد ذاته، ذاته التي حاربت الدين، وهو شخص يلبسه الدين، ذاته التي حاربت لتحقيق العدالة السياسية، فيكتشف أنه عندما وصل إلى سدة السياسة كان أهم معتنقي مبادئ ميكافيللي في الأمير، وأنه شخص يحارب للوصول وتطبيق ذاته أو ذاته التي ادعت الفضيلة ومحاربة الجنس والعلاقات الجنسية، لكنه يحمل عهراً بحجم الكون، ويكتشف أنه كان يحاربه لأنه محروم منه، ويصب في مصلحة غيره وليس في مصلحته، ولم يملك الاعتراف مثل الشاعر الإنكليزي الذي قال مبكراً (وددت لو اجتمعت شفاه جميع النساء في شفة واحدة لقبلتها واسترحت) ذاته التي إن وجدت عاشقين حقدت عليهما، وربما طالبت بصلبهما بدعوى الفضيلة، لكنها عندما تكون هذه الذات معنية فالأمر مباح ومتاح، وليس من باب الحب، وإنما من باب التملك، التملك الوظيفي أو المادي أو المصلحي!

ربما كان الإنسان السوري بحاجة ماسة لحدوث هذه الحرب، هذه الحرب التي كشفت جوهر هذا التناقض الذي تربينا عليه، ليعرف زيف الكثير من القضايا التي يتحدث عنها ويجاهر بها، كان بحاجة إلى خضة عنيفة، جاءت وكانت أكثر من مجرد خضة، جاءت وكانت حرب إبادة للسوري من كل شذاذ الآفاق، ومن المفترض أن هذه الحرب التي استمرت كالحروب العالمية، وكانت أكثر دماراً ودموية بسبب التقدم، من المفترض أن تعلم السوري، وأن تعيده إلى حضارته التي له، وهو لا يدعيها من أذرعات إلى أنطاكية، لكن المتابع يجد النقيض، ففي الشارع تغير كل شيء، وتم اعتناق الأشياء السيئة، ولا نزال على الشاشات نشاهد من يتلفظ ليتحدث عن معرفته واكتشافاته، وكل ذلك في إطار محاربة الواقع للوصول إلى نتيجة كان يرفضها، وها هو اليوم يدافع عنها بكل ما أوتي من عمر اللغة والسياسة التي كان يظن أنه حاربها! فالذي قضى عمره يحارب الشرائع والتعصب صار شيخاً ومتحالفاً، وفي الوطن ما كان يجري سراً صار علناً ومسموحاً ومدعوماً، وتحوّل الوطن بقدرة قادر إلى جهتين شرعيتين إحداهما تواجه الأخرى! وتحول السياسيون إلى وعاظ لتكون الخاتمة بأن السياسيين يحاربون بعضهم بعضاً، وربما يحاربون أنفسهم، والوقود في الحالتين هم الأتباع الذين حتى بعد كل الحرب والاكتشافات ما زالوا يتبعون بطريقة عمياء، لأن الله في زعمهم هو من أراد، وهذا يحب المسؤول لأنه أعطاه هبة عبادة الله! وذاك ينسى عهر الخارج على القانون لأنه تحالف مع المتدين، ورفع شعاراً دينياً، بغض النظر عما إذا كان يعرف الدين أم لا يعرف!

لم يحاول أحد أن يضع الناس أمام حقيقتهم، فأغلبهم يقاتلون لأنهم لا يعرفون ما يقاتلون لأجله، ولأن بعض الجهد يمكن أن يبين الشرائع وخلافاتها إن وجدت كان لابد من الدخول فيما لا يمكن الخوض فيه حسب زعمهم، ففي كل جلسة وفي كل وقت وحين نجد من ينبري للحديث في قضايا عقيدية ووطنية وإيمانية لا يدرك فحواها ولا يعرف مؤداها! من بداية الحرب على سورية سمعت أناساً أعرفهم يرددون الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وهم لا علاقة لهم بالموضوع على الإطلاق، وكل ما يقوم به هو رصف هذه النصوص المقدسة، وفي كثير من الأحيان تكون الأغلاط في الضبط والقراءة علامة من علاماته، وليس له صفة مشيخية، بل هو علماني في حياته وتصرفاته، والاعتراض هنا ليس على أن يقول ويتحدث، فمن حق أي شخص أن يقول ويتحدث، لكن المشكلة التي ينبري لها هذا أو ذاك تظهر دون أدنى شك أن الخميرة التي يرتكز عليها هذا هي خميرة عقدية قادرة على جذبه حين تنتهي أعطيات السلطة، أو أعطيات المعارضة، في الوقت الذي يدعي أنه مختلف! اختلافه كان من منافعه، وما إن تنته هذه المنافع يعد إلى جذوره وأصوله وخميرته..!

لا شعور، هو الذي جعله قادراً على استرجاع ما استرجعه، والاسترجاع غير الواعي وغير الدارس الحقيقي للأمور يدل دلالة قاطعة على جهل، ومن ثم على تعصب أعمى تحكمه المصالح ولا يحكمه الفكر النبيل الذي انطلق منه..! مهما حاول الإنسان أن يخفي من حقيقته فإن جوهر الحقيقة فيه سيظهر ذات لحظة، سواء كان هذا الجوهر سلبياً أم إيجابياً، إلا أنه سيظهر ليبرز ما يمتلكه هذا الإنسان، فالمنع والرفض لا يؤديان نتائج إيجابية، بل إن اصطراع الآراء والأفكار هو وحده القادر على إقناع المتلقين من الناس والجمهور والشعب، ولابد أن نتنبه إلى أن هذا الشعب قادر على الاصطفاء، ولو تمت محاورته لسخر المدلسون من أنفسهم لأنهم مكشوفون.

يكفي ممارسة التذاكي على الجمهور!

علينا أن ندرك أن الطفل يعي ما يدور في العالم الخارجي أكثر من وعي الكبار سناً.

علينا أن ندرك أن اللاشعور مفضوح لدى المتلقي أكثر منه لدى صاحبه.

الحقيقة لانصل إليها ولكننا يجب أن نعمل لمقاربتها ورصف النصوص وتحويلها إلى نصوص مقدسة لا يجدي نفعاً مع من يدعي غير ما هو عليه.

سيمضي عمره في شكل ويودع على هيئته التي يريدها وكان يعمل على اخفائها.

إسماعيل مروة

«ألف حبل مشنقة ولا يقولوا بوعمر خاين يا خديجة»

الأعمال التي تناولت حرب تشرين التحريرية قليلة وهو تقصير وإجحاف بحدث تاريخي غيّر في ضمير الأمة

وائل العدس

اليوم، يحتفل الشعب العربي السوري بالذكرى السادسة والأربعين لحرب تشرين التحريرية التي قادها القائد الخالد حافظ الأسد، في الوقت الذي تثبت فيه سورية بعد أكثر من ثماني سنوات على الحرب الإرهابية الظالمة، قدرتها على الصمود والانتصار في سبيل الحفاظ على سيادة الوطن وكرامة المواطن وصون تاريخه وحضارته بقيادة السيد الرئيس بشار الأسد.

حرب تشرين التحريرية تاريخ جسد مقولة «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» ويوم أعاد لكرامة الأمة العربية بريقها بصناعة نصر أحرزه أبطال الجيش العربي السوري على الكيان الصهيوني الغاشم بعقيدة ثابتة مفادها الشهادة أو النصر.

من تمثيلية «عواء الذئب»

من مسرحية «غربة»

بطل درامي

حاول الفنانون السوريون قدر استطاعتهم وضمن الظروف تخليد عدد من قصص البطولة والإباء في هذه الحرب، ولكنها غير كافية، وكل بطل من أبطال الجيش العربي السوري يستحق أن يكون بطلاً سواء في المسرح أم التلفاز أو السينما، وأعتقد أن الوقت لم يفت بعد على ذلك.

بشكل عام ظهرت بعض الأعمال التي تناولت حرب تشرين، ولكنها للأسف أعمال شحيحة ولم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهو تقصير وإجحاف بحدث تاريخي غيّر في ضمير الأمة وفي خريطة الصراع العربي الصهيوني.

ألف حبل مشنقة

وأمام عظمة هذا الحدث التاريخي، لم تعط الدراما السورية بكل إمكانياتها ما يجب منحه لحرب قلبت الموازين، فاقتصرت الإنتاجات على أعمال قليلة، على حين لم تنجح في ترسيخ أفكارها إلا عبر عمل واحد هو «عواء الذئب» بالأبيض والأسود الذي مازال شاهداً على حكاية واقعية تهتز لها الضمائر.

حيث قدّم خالد حمدي الأيوبي نصاً جميلاً للمخرج الراحل شكيب غنام، ومن بطولة الراحل صلاح قصاص الذي قال جملته الشهيرة: «ألف حبل مشنقة ولا يقولوا بوعمر خاين يا خديجة».

ويتحدث هذا الفيلم عن «أبو عمر»، المهرب الذي يقتل شرطياً والهارب من العدالة والمحكوم بالإعدام، لكنه أثناء حرب تشرين يتمكن من الإمساك بطيار صهيوني سقطت طائرته بالقرب من مكان اختبائه عن أعين الشرطة بعد تعرضها لصاروخ من سلاح الطيران السوري، فيحاول إغراءه بالمال ليساعده على الهرب، لكنه يرفض ويذهب به إلى الشرطة ليسلمه ويسلم نفسه بأن واحد.

الفيلم مأخوذ من قصة واقعية حدثت في بلدة الزبداني في الريف الدمشقي، وقد نفذته دائرة الإنتاج السينمائي في التلفزيون العربي السوري.

يجسد الفيلم شهامة الإنسان السوري وانتماءه العميق لوطنه وأرضه، راصداً قدرته على المواجهة وحبه للمقاومة حتى في أحلك الظروف.

وأصبحت الجملة التي نطق بها «أبو عمر» أيقونة درامية ما زالت تردد حتى الآن على ألسن الأجيال السورية بمختلف أعمارها لما لها من آثار دغدغت المشاعر الوطنية.

ويعرض الفيلم مقاطع صوتية من إذاعة دمشق تجمل أخباراً مدوية بتفوق الجيش السوري وتكبيد العدو الإسرائيلي خسائر فادحة، مصاحب ذلك مشاهد حية من أرض المعركة ومعشقاً بصوت فيروز وأغنيتها الشهيرة «خطّة قدمكن عالأرض هدارة» التي تثير الطيار الصهيوني مطالباً بتغيير التردد والاستماع إلى الإذاعة الإسرائيلية فيرد عليه أبو عمر ضاحكاً «إسرائيل ما بتطلع بهادا الراديو».

تمثيليات أخرى

وتتابعت التمثيليات مثل «العريس» أيضاً للمبدع صلاح قصاص وإخراج شكيب غنام، وترصد قيمة الشهادة العليا واعتبارها عرساً وطنياً تعكس روح التضحية للمواطن السوري واستعداده لتقديم أغلى ما يملك فداء للوطن.

أما تمثيلية «حكاية من تشرين» للمخرج هاني الروماني فاختلفت شكلاً ولكنها تشابهت مع سابقتها مضموناً، حيث وثقت قصصاً ميدانية من أرض المعركة في مزج مترابط بين مشاهد الدراما وواقعية الشريط الوثائقي.

وتميزت تمثيلية «الولادة الجديدة» للمخرج غسان باخوس بإبراز عمق العلاقات الاجتماعية بين السوريين ووقوفهم إلى جانب بعضهم بعضاً ونسيانهم لكل الخلافات؛ مع رصد معارك حقيقية ضارية بين الجيش العربي السوري وقوات الاحتلال؛ موثقاً بذلك لذاكرة بصرية لافتة في تعاطيها مع حرب تشرين؛ مصوراً تلك الروح الأصيلة للجندي السوري؛ والتي جسدها الفنان رشيد عساف أثناء أدائه لدور قائد كتيبة دبابات تتعرض لقصف الطيران الإسرائيلي ليحمل بعد ذلك رفيقه معيداً إياه إلى أهل قريته.

بعد وطني وقومي

قدّم المخرج نجدة إسماعيل أنزور مسلسل «رجال الحسم» عن بطولات الجيش العربي السوري في حرب تشرين من خلال حبكة جاسوسية يقوم عبرها ضابط سوري في متابعة شبكة للموساد في أوروبا.

وتدور أحداث المسلسل الرئيسية حول الشاب «فارس» ويتطرق بطريقة إنسانية إلى قضيته التي دفعته للانتقام لعائلته عبر القيام بعملية فدائية في الأرض المحتلة، ولكن الظروف تحول دون تحقيق ذلك... غير أن إصرار «فارس» على القيام بعمل ما يدفعه للسفر إلى دولة أوروبية والعمل في مطعم يرتاده أشخاص من المافيا الإسرائيلية بعد أن يغير اسمه.

كما يتخلل المسلسل عملية تجسس فيها سلسلة من الأحداث التي أسقط من خلالها الأقنعة عن حياة ضباط الموساد الذين اختبؤوا وراء ستار ولائهم لدولتهم.

ويكسر العمل حجر الجدار الذي اختُبئ وراءه جبروت رجال الموساد ليضعهم أمام عاصفة العدالة السماوية التي لابد أن تطبق في الأرض مهما رفض المعتدي.

ويحمل العمل بعداً وطنياً وقومياً وهو يتحدث عن معاناة يعيشها أبناء الشعب السوري في الجولان المحتل وانتشار ثقافة المقاومة ويصور جرائم الموساد.

في المسرح

أما عن المسرح، فكانت بدايته عن حرب تشرين بقلم كوليت خوري التي كتبت «أغلى جوهرة بالعالم»، ثم مسرحيتي «نقطة دم شهيد» التي مولتها المرحومة سامية المدرس المدرسة في مدرسة أبناء الشهداء في عام ١٩٧٤، وكانت مسرحية أحمد قبلاوي «أول فواكي الشام يا فانتوم» قمة في الكوميديا حيث تفاعل معها الجمهور بشكل لا يمكن وصفه، وشارك بالعرض من حيث لا يدري، حتى كانت رائعة محمد الماغوط ودريد لحام «ضيعة تشرين» وبعدها جفت أقلام الكتاب وبدأ وهج المسرح يخفت شيئاً فشيئاً.

النقد في فكر إدوارد سعيد

كتاب «الاستشراق» نقطة فارقة في حقل الدراسات الأكاديمية

جُمان بركات

إن محاولة الكتابة عن مفكر كبير كإدوارد سعيد تبدو شبيهة بمحاولة الكتابة عن كاتب كشكسبير، فقد أسس لدنيوية أو علمانية النقد في كتابه «العالم والنص والناقد» وأعطى للنصوص هوية تأتي من الظروف التي تشكلت فيها، وعلمنا أن النظرية كالأشخاص تهاجر، والقراءات المرتبطة بمرحلة معينة سيعاد إنتاجها في مراحل أخرى، والنص مفتوح لتأويلات متعددة والقارئ جزء من تلك الشروط. وتحت عنوان «النقد في فكر إدوارد سعيد» قدمت المترجمة ناهد تاج هاشم محاضرة أدبية أدارها الأستاذ جمال شحيد، تحدثت فيها عن المفكر الفلسطيني الأميركي إدوارد سعيد الذي قدم إرثاً كبيراً من الأعمال تنوعت بين الكتب والمقالات المعالجة لقضايا شائكة في الأدب والنقد.

من المفهوم إلى النظرية

انطلقت الباحثة ناهد تاج هاشم من سؤال إشكالي: ما النقد؟ هل البحث عن الإيجابيات والسلبيات في عمل ما، سواء أكان نصاً مكتوباً أم لوحة فنية أم مادة إعلامية مرئية؟ هل فرز الميزات والعيوب؟ هل يجسد رأينا الشخصي بذلك العمل؟ وهل يحتاج النقد إلى معرفة مختلفة عن تلك التي يمتلكها المختصون؟ هل ممارسة صعبة دونها متاعب وتتطلب أن يقوم بها باحثون أكاديميون؟ هل تخصص يحتاج لسعة اطلاع ودراية؟

في الواقع، يرى إدوارد سعيد في كتابه «العالم والنص والناقد»: ممارسة النقد في هذه الأيام تتخذ أربعة أشكال رئيسية، الأول: النقد العملي الذي نجده في مراجعة الكتب والصحافة الأدبية، والثاني: التاريخ الأدبي الأكاديمي الذي ينحدر إلينا من الاختصاصات التي كانت قائمة في القرن التاسع عشر كدراسة الأدب الكلاسيكي والفيلولوجيا وتاريخ الحضارة، والثالث: التقويم والتأويل من زاوية أدبية، وعلى الرغم من أن هذا الشكل بالأساس عمل أكاديمي فإنه على نقيض سلفيه ليس مقصوراً على المحترفين وعلى أولئك الكتاب الذين يبرزون من حين لآخر، أما الرابع فهو النظرية الأدبية التي هي مضمار جديد نسبياً لم تبلغ مرحلة النضج إلا في عقد السبعينيات وذلك من جرّاء الاهتمام المتعدد الملحوظ بالنماذج الأوروبية السباقة.

والسؤال أي من هذه الأشكال الأربعة هو النقد الذي يمارسه إدوارد سعيد؟ الإجابة في ما كتبه حيث يقول: إن مقالاته التي جمعها في كتابه تستمد وجودها من الأشكال الأربعة حتى لو كان ميدانا مراجعة الكتب في الصحف والتقويم الأدبي في الصف بعيدين البعد كله عن التمثيل المباشر، وبحسب سعيد فإن الوضع السائد في النقد في الوقت الراهن جعل كلاً من هذه الأشكال تبدو وكأنها تخصص مستقل، ما أدى إلى قيام عبادة الخبرة الاحترافية ذات الأثر المخزي على العموم.

النقد العلماني

يقول سعيد: إن النصوص دنيوية يعني أنها جزء من العالم الاجتماعي والحياة البشرية واللحظات التاريخية التي تقع فيها وتفسر فيها، والسؤال هل يختلف نقدنا وفهمنا للنص في حال عزلناه عن الظروف والعوامل التي أنتجته من الخارج «المؤلف وظروف عالمه»؟ للإجابة قالت ناهد تاج هاشم: إن النقد العلماني تعبير عن عقم مدارس كالشكلانية والبنيوية في تناول النصوص ودراستها دراسة وافية في سياق يميط اللثام عن الأصوات المكونة لها داخلياً وخارجياً، وهذا النقد الدنيوي أو العلماني حمل اسم النقد الثقافي لبعض النقاد. النص يتكون من بنية وحدث، وربطاً مع مفهوم النقد الدنيوي فإن «دنيوية النص» هي إعلان عن أن نظرية موت المؤلف أو التأثيرات الخارجية في النصوص إعلان لكونها لا تصلح لقراءة نص وفهم ما ينتجه من انزياحات، ولكن علينا أن نفهم أن النصوص جزء من عالم تتشكل فيه وتتمتع بهوية دنيوية، وبالتالي النقد الذي سيعالجها يتمتع هو الآخر بهوية دنيوية.

النظرية المهاجرة

أفرد سعيد فصلاً في كتابه «العالم والنص والناقد» للنظرية المهاجرة يقول فيها:

الأطوار الأربعة المألوفة التي تمر بها أي نظرية مهاجرة هي: الموضع الأصلي، أي مجموعة من الظروف الأولية التي صادف أن ولدت فيها الفكرة، أو راجت من خلالها في الخطاب، وثمة مسافة تعترض سبيل الفكرة التي تنتقل من موضع سابق إلى زمان ومكان آخرين ولذلك عليها أن تجتازها، ومجموعة من الظروف ظروف التقبل أو ضروب المقاومة لكونها جزءاً لا يتجزأ من ظروف التقبل، وتتعرض هذه الفكرة التي أضحت الآن موضع الاحتواء أو الدمج بشكل كامل أو جزئي إلى شيء من التحوير جراء استخداماتها الجديدة.

القراءة الطباقية

قدم سعيد مفهوم القراءة الطباقية الذي يعد نظرية فرعية من دراسات الأدب المقارن، في كتابه «الثقافة والإمبريالية» الصادر عام ١٩٩٣، وقالت عنه المترجمة: هذا المصطلح يمثل تأثير الموسيقا على سعيد حيث استلهمه منها ووظفه كمفهوم مركزي في منهجه التحليلي، وفيما يخص ما قصده سعيد أن القراءة الطباقية هي منهجية في الدراسة المقارنة من حيث إنها تتعامل مع هجونة النصوص لإظهار كيف أن الرسائل التي تبدو مختلفة تأتلف لإنتاج تناغم شبيه بذاك الذي نجده في الموسيقا.

كتاب «الاستشراق»

أضافت تاج هاشم: شكّل كتاب «الاستشراق» نقطة فارقة في حقل الدراسات الأكاديمية، وذهب تأثيره إلى أبعد من كونه عملاً تناول نصوصاً حول موضوع إشكالي كعلاقة الشرق بالغرب، بل حرّض ردوداً ودراسات وفتح على سعيد سيل الانتقادات، إلا أن الكتاب هو واحد من المصادر الكبيرة إن لم يكن المصدر الأساسي لعمل لاحق أكبر قام به آخرون في مجالات النظرية الأدبية والنقدية والثقافية خاصة في مجال الدراسات ما بعد الاستعمارية، انطلق أساساً من دنيوية النصوص التي عالجها ووضعها في سياق الظروف التي أنتجتها.

الاستشراق يعني فيه سعيد ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي بصورة سلبية في الثقافة والبحث والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، وليس معبراً وممثلاً لمؤامرة غربية شنيعة لإبقاء العالم الشرقي حيث هو، بل هو توزيع للوعي الجغرا–سي إلى نصوص جمالية وبحثية واقتصادية واجتماعية وتاريخية وفقه لغوية.

في الحقيقة، استطاع «الاستشراق» أن يكون تجسيداً عملياً لممارسة النقد العلماني أو الدنيوي، رغم أنه صدر قبل صدور كتاب سعيد «العالم والنص والناقد» أي قبل التنظير لمفهوم النقد العلماني؟ لقد انطلق الكتاب من وعي نقدي بضرورة معالجة موضوع شائك كالاستشراق، وهذا الوعي النقدي الذي كان مدفوعاً بتجارب سعيد الشخصية، والوعي تجاه «ثقافة النسب» القادم منها كشرقي وعربي، و«ثقافة الانتساب» والمقصود بها الثقافة الغربية والمؤسسة الأكاديمية التي كتب من داخلها وظل فيها غريباً اغتراب الإنساني الذي يعلم أن وطنه ليس محصوراً ببقعة جغرافية.

«ما بعد الاستعمارية»

وتابعت المترجمة بالقول: «الاستشراق» الكتاب الذي مهد الطريق لولادة نظرية ما بعد الاستعمارية في النقد الأدبي، وتنظر في قضايا الاستعمار والآخر والتمثيل والقوة والمقاومة، واستمدت مقوماتها من نقد سعيد الدنيوي لحقل الاستشراق، وبهذا يكون حرّض على ولادة نظريات نقدية جديدة تعيد قراءة العلاقة بين الشرق والغرب، والأهم ترسخ فكرة الحاجة لقراءة النص وفق عوامل إنتاجه الداخلية والخارجية.

غير أن الاستشراق كان نقداً يحتمل الصواب والخطأ لكن أهم ما فيه أنه جعل القراءة نفسها كفعل عمل عابر لشروطه وتقييداته، رغم إدراكه لتلك التقييدات، وعمل حثيثاً للخروج بالنقد من أسواره التخصصية إلى ميادين التاريخ والسياسة والاجتماع، وانتقل تأثيره لدراسات تتناول الشرق والغرب.